HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة (التصنيف: NSP)
معامل التأثير العربي للعام 2020 = 0.44

عنوان البحث

البنية المعرفية للزمخشري في ضوء علم اللغة الحديث

أسماء لشقر[1]

[1] جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية–سايس–فاس
البريد الإلكتروني: asmaelachqa@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/07/01م تاريخ القبول: 2021/06/26م

المستخلص

نتناول في هذا البحث "السياق" بجانبيه اللغوية وغير اللغوي الذي اعتبره علماء العرب والمفسرين أمثال "الزمخشري" أساسا في فهم الخطاب، وآلية من آليات حيازة المعنى وتقويم الدلالة، وأصلا يحتكم إليه خاصة في خطاب الله تعالى الذي يبنى على أغراض معتبرة، ونظم متعددة، فهو الإطار العام الذي تنتظم فيه عناصر النص، ووحدته اللغوية، والمقياس الذي تتصل بواسطته الجمل وتترابط قصد إيصال معنى معين أو فكرة محددة لقارئ النص. وقد قاربنا في هذه الدراسة بين منهج "الزمخشري" في تفسير الخطاب ومنهج اللغوين المحدثين من قبيل العالم اللغوي الانجليزي "فيرث"، وبينا التقاطع الحاصل بين المنهجين في تحديد معنى النص ودلالاته.

الكلمات المفتاحية: السياق – معنى النص-تفسير الخطاب-المستوى اللغوي وغير اللغوي – سياق المقال وسياق المقام.

RESEARCH ARTICLE

THE COGNITIVE STRUCTURE OF ZAMAKHSHARI IN THE LIGHT OF MODERN LINGUISTICS

Asmae Lachqar[1]

[1] University of sidi Mohamed Ben Abdallah, Faculty of Letters and Human Sciences- Sais- Fes
E- mail: asmaelachqa@gmail.com

Published at 01/07/2021 **Accepted at 26/06/2021**

Abstract

In this research, we deal with 'context' with its linguistic and non-linguistic aspects, which Arab scholars and interpreters like 'Al-Zamakhshari' considered as a basis in understanding discourse, and as a mechanism of meaning acquisition and evaluation of significance, and as an origin to which it is appealed, especially in the speech of God Almighty, which is built on significant purposes, and multiple systems. It is the general framework in which the elements of the text are organized, its linguistic unity, and the scale by which the sentences are connected and interconnected in order to convey a specific meaning or a specific idea to the reader of the text. In this study, we have compared the approach of 'Al-Zamakhshari' in interpreting the discourse and the approach of modern linguists such as the English linguist Firth, and we have shown the intersection between the two approaches in determining the meaning of the text and its connotations.

Key Words: context - meaning of the text - interpretation of the discourse - linguistic and non-linguistic level - Linguistic context- Non-linguistic context.

1- مقدمة:

يعالج موضوع هذه الدراسة " البنية المعرفية للزمخشري في ضوء علم اللغة الحديث " السياق عند "الزمخشري" باعتباره أحد الركائز المهمة في الدرس اللغوي القديم، لكونه عنصرا فاعلا في توضيح الكلام وبيانه، كما يعد أصلا من أصول التفسير التي يجب الاعتماد عليها في شرح معاني كتاب الله تعالى، ودعامة رئيسة في تحليل الخطاب القرآني، نظرا لاحتوائه على كل العناصر الداخلية والخارجية للنص، وتعبيره عن العلاقات والروابط القائمة بين أجزاء النص، وعلاقة هذه الأجزاء بمحيطها الخارجي المتمثل في الزمان والمكان، والمتكلم والمخاطب، بالإضافة إلى ما يرافقها من ظروف اجتماعية وثقافية. كما اتخذ السياق مكانة هامة في البحث الدلالي التداولي عند السياقيين المحدثين أمثال اللغوي الإنجليزي "فيرث" الذي يرجع له الفضل في تعميق هذا المبدأ وتوسيع جوانبه، وذلك لما له من وظائف في تحديد المعاني المختلفة والمتعددة للكلمات والتراكيب، بل النص بكامله.

أولا: الإطار المنهجي للدراسة:

أ- أهمية البحث:

أ-أهمية الإحاطة بمنهج أبي المفسرين "الزمخشري" الذي اتخذ من العلوم اللغوية عامة والسياق خاصة منبعا أصيلا يمتاح منه قواعده ومبادئه الأساسية لتفسير الخطاب القرآني وبيان معانيه، ومقاربته بمنهج العالم اللغوي الإنجليزي "فيرث".

ب - الهدف من البحث:

يهدف هذا البحث إلى تبيين أمور منها:

- تحديد البنية المعرفي عند الزمخشري في تفسير الخطاب القرآني؛
- بيان دور السياق الخارجي والداخلي في توضيح وكشف معاني الخطاب؛
- مقاربة المنهج التصنيفي للزمخشري بمنهج المحدثين (فيرث) نموذجا.

ج - مشكلة البحث:

- ما البنية المعرفية للزمخشري في تحليل الخطاب وتفسيره، وهل تتمثل هذه البنية في المستوى اللساني وحده أو في المستويات غير اللسانية؟
- ما التقاطع الوارد بين منهج الزمخشري في تفسير الخطاب القرآني والمنهج الذي اتبعه المحدثون في تحديد معنى النص؟
- هل لنظرية السياق بشقيها "المقامي والمقالي" دورا مهما في استنباط معاني الخطاب وتأويله تأويلا كافيا ومناسبا؟

د – حدود الدراسة:

تشتمل حدود الدراسة على الحدود الموضوعية والزمانية ويمكن إبرازها كالآتي:

- **الحدود الموضوعية:** تفسير معاني الخطاب القرآني يتطلب البحث في المستويات اللغوية وغير اللغوية، والنظر لدور السياق في إبراز ذلك.
- **الحدود الزمانية:** يتحقق ذلك من خلال بداية نزول القرآن الكريم وتفسيره إلى ظهور النظريات الحديثة في يومنا المعاصر.

هـ – الدراسات السابقة:

تناولت عدة دراسات موضوع السياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي وأثره في بيان معاني الخطاب ودلالته، نذكر منها:

- دراسة علي حميد حضير، "دلالة السياق في النص القرآني"، أطروحة مقدمة إلى قسم اللغة العربية في كلية الآداب والتربية الاكاديمية العربية في الدنمارك، 2014م، وقد اهتم هذا البحث بدراسة السياق وأهميته، والكشف عن المعاني التي تختفي وراء اللفظ الذي لا يمكن استنطاقه إلا بمعرفة دلالته في النص، وتم استحضار نماذج تطبيقية من القرآن الكريم.
- عبد الفتاح خمار، دلالة السياق في فهم النص: سورة يوسف نموذجا، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد حيضر –بسكرة–2014م/ 2015م، تدور هذه الدراسة حول أهمية السياق وفوائده في الكشف عن معاني النص القرآني، وذلك باستنباط الأحكام الشرعية، كما أن السياق يساهم في تماسك النص القرآني خاصة القصصي. وقد تم تطبيق ذلك على سورة سيدنا يوسف.

إلا أنني في بحثي هذا، وقفت عند مفهوم السياق عند "الزمخشري" وأثره في الكشف عن المعاني، مقارنة بنيته المعرفية بالنظريات السياقية الغربية مثل نظرية العالم الإنجليزي "فيرث " (J. Firth)

و– منهج الدراسة:

وقد اقتضت هذه الدراسة وطبيعة الموضوع أن يكون المنهج الوصفي التفسيري هو المنهج الأنسب لإبراز تجليات هذا البحث العلمي وقيمته.

ثانيا– الإطار التطبيقي للدراسة:

أ–حد السياق وأقسامه:

إن السياق هو: "ما يحيط بالنص من عوامل داخلية وخارجية لها أثر في فهمه، من سابق أو لاحق به، أو حال المخاطب والمخاطب، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه"[1].

[1]– عبد الرحمن جرمان المطيري، السياق القرآني وأثره في التفسير، دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، رسالة لنيل الماجستير التفسير وعلوم القرآن، 2008م، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ص: 65.

ويمكن الإحاطة بالسياق من جانبين اثنين هما:

✓ السياق الداخلي أو السياق اللغوي أو السياق المقال Linguistic context، وهو "المعنى الذي يفهم من الكلمة بين الكلمات السابقة واللاحقة لها في العبارة أو الجملة، ويتمثل ذلك في العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين هذه الكلمات على مستوى التركيب"[2]. فهذا الجانب إذن مرتبط بالمادة اللغوية المشكلة للنص من جهة، وما يقع بينها من علاقات، صوتية وصرفية ونحوية ودلالية من جهة أخر. فعلى سبيل المثال نجد السياق يتضمن "الصوت في تعلقه بالنظم اللفظي في إطار الأصوات الأخرى على مستوى الكلمة أو الجملة. ومن الظواهر الصوتية التي تخضع للسياق اللغوي: النبر، التنغيم، والوقف"[3]. كما يضم بعض الظواهر النحوية المرتبطة بالجمل من ناحية العلاقات السياقية مثل: "دراسة القواعد المنظمة لترتيب الكلمات في الجملة من حيث التقديم والتأخير، والزيادة، والحذف، ودراسة ما يسمى بالموافقة والمخالفة بين الكلمات في الجملة، كدراسة العلاقة بين المبتدأ والخبر، وبين الصفة والموصوف... كما يشمل دراسة بعض الظواهر الإعرابية في اللغة العربية من الإعراب والبناء..."[4].

✓ السياق غير اللغوي، أو الخارجي أو السياق الحال Non-linguistic context، وهو جميع "الظروف والملابسات الاجتماعية التي تلف الكلام في الموقف المعين الذي يلقى فيه، وهذه الظروف والملابسات تشكل فيما بينها وحدة متكاملة، يشار إليها عادة بالمصطلح الإنجليزي Context of situation أو المقام"[5].

وتتجسد هذه الظروف والملابسات عند كمال بشر "في الكلام منطوقا أو مكتوبا . المرسل (نطقا أو كتابة) والمستقبل والعلاقة بينهما . الزمان وما فيه ومن فيه"[6] والحال نفسه عند محمود السعران الذي يرى أن "سياق الحال" أو "الماجرى" هو "جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي (أو للحال الكلامية)" [7]، ومن هذه العناصر المكونة للحال الكلامية نجد:

- شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي؛
- العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي؛
- أثر النص الكلامي في المشتركين، كالإقناع، أو الألم، أو الإغراء، أو الضحك؛

فمن هذا المنطلق، هل نظرية السياق لها علاقة بالتفكير اللساني للزمخشري؟ وهل هذا التفكير يتقاطع أو يتناسب مع ما جاء به" فيرث" في علم اللغة الحديث؟

---

[2]– جمعان بن عبد الكريم، إشكالية النص دراسة لسانية نصية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط. الأولى، 2009م، ص: 401.

[3]– المرجع نفسه، ص: 401.

[4]– جمعان بن عبد الكريم، إشكالية النص دراسة لسانية نصية، ص: 401.

[5]– كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، دار الغريب، القاهرة، 2005م، ص: 368.

[6] – المرجع نفسه، ص 368

[7]– محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، ص: 311.

ب-السياق والبنية المعرفية للزمخشري:

يعد السياق اللغوي وغير اللغوي من الآليات المنهجية التي تسهم في بناء المعرفة عند الزمخشري، بل ويعد أيضا منهجا أساسا لدى مفسري القرآن كأبي حيان لأندلسي في تفسيره "البحر المحيط" وغيره.

لقد أدرك الزمخشري دور السياق وأهميته في توجيه معاني الألفاظ وتنوعها، وكان تفسيره للألفاظ القرآنية تفسيرا لغويا بحسب ما اقتضته مناسبات السياق ومعطيات اللغة، فقد وقف كثيرا عند مفردات النص القرآني، يتأمل وقع كلماته وملاءمتها للسياق"[8].

ولعل أوضح صورة يتجلى فيها إدراك الزمخشري لدور السياق في توجيه معنى اللفظ ودلالته المتنوعة بين المفرد والمثنى؛ ما جاء على لسان فرعون في قوله تعالى: بز**قالَ فمنْ رَبكما يا موسى**بر[9]. حيث تحول الكلام من خطاب المثنى في لفظة "**رَبكما**" إلى خطاب المفرد في قوله تعالى: "**يا موسى**"، وعلل الزمخشري هذا التحول الذي وقع في الخطاب بقوله: "خاطب الاثنين ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى؛ لأنه الأصل في النبوة"[10]. فالزمخشري هنا، ربط بين مدلول الكلمة بسياقها، حتى تكون ملائمة له على أحسن وجه من وجوه الملاءمة، وقد راعى الزمخشري في هذا الأمر المعنى، وعمل على عقد الصلة بينه وبين السياق، نظرا لاعتبار السياق هو الموجه. كما يستند الزمخشري إلى السياق لمعالجة الإشكال الذي قد يحوم بناء قاعدة ما، أو توجيه قراءة قرآنية أو معنى آية أو دحض رأي مخالف، فعلى سبيل المثال: قراءة "**الحمْدُ**" التي جاءت بأوجه مختلفة (الرفع، النصب، الجر) في قوله تعالى: بز**الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ**بر[11]، فالزمخشري في هذه الآية استند إلى مبدأ السياق لتوجيه هذه القراءة وانتقاء الأجود منها بقوله: "ارتفاع الحمدُ بالابتداء وخبره الظرف الذي هو الله وأصله النصب، الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصب العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار... والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره، ومنه قوله تعالى: بزقالوا سلاما قال سلامُبر [12], رفع السلام الثاني للدلالة على أن "إبراهيم" عليه السلام حياهم بتحية أحسن من تحيتهم؛ لأن الرفع دال على معنى تبات السلام لهم دون تجدده وحدوثه, والمعنى: نحمد الله حمدا... وقرأ الحسن البصري، "**الحمدِ للهِ**" بكسر الدال لإتباعها اللام، وقرآ إبراهيم بن أبي عبلة "الحمدُ لله" بضم اللام لإتباعها الدال، وأشف القراءتين قراءة إبراهيم حيث جعل الحركة البنائية تابعة للإعرابية التي هي أقوى، بخلاف قراءة الحسن"[13].

ومن مظاهر السياق غير اللساني عنده نجد أسباب النزول، والمكي والمدني، والتدرج الزمني للقرآن الكريم، والناسخ والمنسوخ. ولهذه العناصر أهمية كبرى في توضيح معنى الخطاب القرآني وبيانه، ومن بين

---

[8]- محمد أبو موسى، البلاغية القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر، القاهرة ص: 213.

[9]- سورة طه، الآية: 49.

[10]- الزمخشري، الكشاف، ج. 3، ص: 65.

[11]-سورة الفاتحة، الآية: 2.

[12]- سورة الذاريات، الآية (25).

[13]- الزمخشري، الكشاف، ج. 1، ص: 19-20.

مظاهر السياق الواردة في الكشاف نجد تفسيره لقوله تعالى: بز**إِنَّ اللهَ يأْمُرُكمْ أَنْ تؤَدُّوا الأَماناتِ إِلى أَهلها**بر[14]، حيث قال مبينا السياق الذي نزلت فيه هذه الآية: "قيل نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد الدار (...) حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح، وأبى أن يدفع المفتاح إليه، وقال: "لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه، فلوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يده، وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح، ويجمع له السقاية والسدانة فنزلت""[15].

وعلى المنوال نفسه ذهب الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى: "**عبسَ وَتوَلى، أنْ جاءَهُ الأَعمى**"[16]. إلى إبراز دور السياق وأهميته في تفسير معنى الخطاب القرآني وبيانه، حيث قال: "أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكثوم (...) وعنده صناديد قريش (...) يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال يا رسول الله، أقرئني، وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك هو لا يعلم تشاغله بالقوم، فكره الرسول صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت"[17]، ومن الأمثلة الواردة في الكشاف التي تبرهن أهمية "مكان وزمان" نزول الآية باعتبارهما سياقا غير لغويا في توضيح دلالة الخطاب القرآني نجد قول الزمخشري في قوله تعالى: بز**وَقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذِينَ يقاتلونكمْ وَلا تعتدُوا إِنَّ اللهَ لا يحبُّ المعتدِينَ**بر[18]، "عن الربيع بن أنس رضي الله عنه: هي أول آية نزلت في القتال بالمدينة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من قاتل ويكف عمن كف... وقيل: لما مد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم علم الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قاتل فيخلوا له مكة ثلاث أيام فرجع لعمرة القضاء، فخاف المسلمون أن لا يفي لهم قريش ويصدقوهم ويقاتلوهم في الحرم وفي الشهر الحرام وكرهوا ذلك نزلت وأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم منهم في الحرم والشهر الحرام"[19].

بالإضافة إلى علم الناسخ والمنسوخ الذي اعتمده الزمخشري لتفسير القرآن واستقصاء معانيه الخفية، إذ نجد هذا العلم حاضرا في منهج هذا الرجل بجانب علوم أخرى. هدفه من ذلك هو الكشف عن المعنى الأساسي للنص القرآني.

فعلى سبيل المثال، في قوله تعالى: بزيا أَيها الذِينَ آمنوا كتبَ عليكمْ القصاصُ في القتلى الحرُّ بالحرِّ وَالعبدُ بالعبدِ وَالأُنثى بالأُنثىبر[20]، وظف الزمخشري هذه الآية في سياق توضيح ما أبهم في قوله تعالى: بزوَكتبنا عليهمْ فيها أَنَّ النفسَ بالنفسِبر[21]. فهذه الآية حسب الرواية تدل على أن القصاص ثابت بين العبد والحر، والذكر

---

[14]– سورة النساء، الآية: 58.

[15]– الزمخشري، الكشاف، ج. 1، ص: 512.

[16]– سورة عبس، الآية: 1–2.

[17]– الزمخشري، الكشاف، ج. 4، ص: 687–688.

[18]– سورة البقر، الآية: 190.

[19]– الزمخشري، الكشاف، ج.1 ص: 233.

[20]– – سورة البقرة: الآية: 178.

[21]– سورة المائدة: الآية: 45.

والأنثى، بينما الآية الأولى تبين أن الحر لا يقتل بالعبد، والذكر لا يقتل بالأنثى، ومن تم اعتبرت الآية الأولى مفسرة للآية الثانية ومنسوخة بها.

كما أن التدرج الزمني يساعد على معرفة النص أو الخطاب القرآني، وهو عنصر له وظيفة أساسية تطابق وظيفة المستويات غير اللسانية الأخرى وتوازيها، وهذا ما نلمسه من قوله تعالى: بزيسأَلونكَ عنْ الخمرِ وَالميسر قلْ فيهما إِثمٌ كبيرٌ وَمنافعُ للناسِ وَإِثمهما أَكبرُ منْ نفعهمابر[22] حيث نجد الزمخشري يبني معنى هذه الآية حسب سياق التدرج الزمني قائلا: "نزلت في الخمر أربع آيات بمكة: بزوَمنْ ثمرَاتِ النخيلِ وَالأَعنابِ تتخذُونَ منهُ سكرًابر[23]، فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال، ثم إن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة قالوا: يا رسول الله، أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت: "فيهما إِثمٌ كبيرٌ وَمنافعُ للناسِ" فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا وسكروا فأمر بعضهم فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون فنزلت: بز لا تقرَبوا الصلاةَ وَأَنتمْ سكارَىبر[24] فقل من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك قوما فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعرا فيه هجاء الأنصار فضربه أنصاري بلحي بعير فشجه موضحة، فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت بز إِنما الخمرُ وَالميسرُ وَالأَنصابُ وَالأَزْلامُ رِجسٌ منْ عملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ لعلكمْ تفلحونَ، إِنما يرِيدُ الشيطانُ أَنْ يوقعَ بينكمْ العدَاوَةَ وَالبغضاءَ في الخمرِ وَالميسرِ وَيصدَّكمْ عنْ ذِكرِ اللهِ وَعنْ الصلاةِ فهلْ أَنتمْ منتهونَبر[25].

وبناء على ما سبق يمكن القول إن الزمخشري يعد أحد المفسرين الذين راعوا شروط التفسير في منهجهم، وذلك بغية توجيه الخطاب القرآني توجيها بانيا للمعنى بناء متكاملا ومطابقا للمقام أو السياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي، وهذه الشروط تتمحور حول مجموعة من العلوم أشبه ما تكون بمراحل التحليل المذكورة في نظرية السياق، وهي:

- التحليل الصوتي المرتبط بـ (علم القراءات).
- التحليل الصرفي المرتبط بـ (الأبنية والصيغ).
- التحليل النحوي المرتبط بـ (الإعراب).
- التحليل المعجمي المرتبط بـ (شرح المفردات وبيان دلالاتها)
- التحليل غير اللغوي (سياق الحال) المرتبط بـ (أسباب النزول، والمكي والمدني، والترتيب الزمني لنزول الآيات القرآنية، والناسخ والمنسوخ).

---

[22]– سورة البقرة، الآية: 219.

[23]– سورة النحل، الآية: 67.

[24] – سورة النساء، الآية: 43.

[25]– سورة المائدة، الآية: 91.

ج –السياق والمعنى عند فيرث (J. Firth):

تعتبر نظرية السياق The contextual théory of meaning عند "فيرث"[26]، من أهم المناهج لدراسة المعنى، نظرا لما تميز به من خصائص، كالعناية بالعناصر اللغوية والاجتماعية، وكذا الابتعاد عن الأفكار، والرؤى البعيدة عن الواقع اللغوي. وتدور فكرة سياق الحال عند فيرث "حول دراسة اللغة كأداة اجتماعية؛ أي كأداة في المجتمع يستعملها الأفراد بقصد تحقيق أهداف وأغراض معينة"[27]، لذا فهذه النظرية تعد نظرية واسعة النفوذ وذات قيمة كبيرة في دراسة المعنى.

نظر فيرث إلى المعنى على أنه "كل مركب من مجموعة من الوظائف اللغوية، بالإضافة إلى "سياق الحال" غير اللغوي، ويشمل الجانب اللغوي الوظيفة الصوتية ثم الصرفية (المورفولوجية)، والنحوية (التركيبية)، والمعجمية، ويشمل "سياق الحال" عناصر كثيرة تتصل بالمتكلم والمخاطب، والظروف الملابسة والبيئة"[28].

ومن تم فالمعنى عند" فيرث" هو نتيجة علاقات متشابكة متداخلة بين ما هو مقامي ومقالي. وهو ليس وليد لحظة معينة، وإنما هو حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع. ويؤكد هذا الأمر بقوله: "إن المعنى لا يدرك إلا من خلال وضع الوحدة اللغوية في سياقات مختلفة، وأنه لابد من التخلي عن المعنى بوصفه عمليات ذهنية كامنة والنظر إليه على أنه "مركب من العلاقات السياقية"[29] فالجمل عنده مثلا تكتسب دلالاتها انطلاقا من ملابسات الأحداث والوقائع؛ أي من خلال سياق الحال، لذا فهو يرى أن تدرس اللغة كجزء من المنظومة الاجتماعية.

ولتحليل معنى الجملة حسب مقتضيات "سياق الحال"، أو للوصول إلى معنى أي نص لغوي، تقدم نظرية "السياق" منهجا عمليا يقوم على مرتكزات أساسية تستلزم:

1- "أن يحلل النص اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة (الصوتية، والمورفولوجية، والنظمية، والمعجمية).

2- أن يبين "سياق الحال" (الماجريات): شخصية المتكلم؛ شخصية السامع؛ جميع الظروف المحيطة بالكلام..." إلخ.

3- أن يبين نوع الوظيفة الكلامية: ثمن، إغراء، الخ.

---

[26]– يعد عالم اللغة الإنجليزي فيرث Johne Firth (1890م–1960م) أحد رواد البحث اللساني، والقطب المؤسس للمدرسة الاجتماعية أو مدرسة لندن؛ فقد أنشأ أول قسم لعلم اللغة في بريطانيا، وكان الرائد في تدريس علم اللغة العام في الجامعة البريطانية عام 1944م، وفي خضم بحوثه ودراساته وضع نظرية لغوية عامة جاءت محطة للدراسة اللغوية التي ظهرت في بريطانيا آنذاك؛ حيث كانت له اهتمامات خاصة باللغة الشرقية، وأهم إنجازاته اللغوية "نظرية السياق". ينظر: غنية تومي، السياق اللغوي في الدرس اللساني، مجلة المحبر، الجزائر، العدد السادس، 2010.

[27]– يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث، 1989، ص: 82.

[28]– طاهر سليمان حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ص: 214.

[29] Firth J.R. papers in linguistics1934-1951(London; oxford university press,1957)p:48

4- أن يذكر الأثر الذي يتركه الكلام؛ (الضحك، تصديق، سخرية، ... الخ)"[30].

ويفهم مما ورد أن "فيرث" في ضوء دراسته للمعنى قد بحث عن هذه الطرق والمرتكزات ليتكئ عليها في منهجه، وذلك حتى يتمكن من إبراز المعنى، والتوصل إلى فحوى النص. فهو يرى أن المعنى: "هو مجموعة خصائص الكلمة التي لا استقلالية لها ولا ذاتية لدلالتها (...) وأن وجودها ومعناها شيئا نسبيا يمكن ملاحظة كل منهما في سياق غيرهما من الكلمات والمعاني، أو عن طريق التقابل بينهما، وعلى ذلك فإن ما تدل عليه الكلمة ينحصر في وظيفتها التي لا تعرف إلا بمعرفة وظائف غيرها من الكلمات"[31].

يرى "فيرث" أن اللغة تقوم على محورين هما: محور النظام system، ومحور البناء Structures، ويمكن دراسة هذا النظام والبناء على عدد من المستويات وهي:

- ❖ **المستوى الصوتي**: حيث اعتبر" فيرث" أن النظام الصوتي لغة يتألف من عدة أنظمة Polysystemic وليس من نظام أحادي Monosystemic الممثل في سرد الوحدات الصوتية، ولذلك فالتحليل ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار التشكيلات الصوتية أو التطريزات الصوتية Prosodic Features[32].

يبدو أن اهتمام "فيرث" بالمستوى الصوتي للألفاظ في المنظومة الكلامية يرجع إلى دور الملامح الصوتية للكلام في تحديد المعنى، خصوصا ما يتعلق بالنبر والتنغيم والوقف.

- ❖ **مستوى المفردات**: في هذا المستوى "يعكس مفهوم التساوي collocation فكرة البناء، والتساوي في صياغته المبكرة كان يقصد به الترابط الأفقي الطبيعي ما بين الكلمات، مثل: كذبة أبريل". "حللت أهلا"، وقد تطور المفهوم فأصبح يعني: دخول الكلمة في سياق مقبول مع كلمة أو كلمات أخرى، فعلى سبيل المثال يمكن للفعل (أطلق) أن يتساوق[33] مع العناصر التالية:
  - أطلق لحيته (جعلها تنمو).
  - أطلق ساقيه للريح (ولى هاربا).
  - أطلق الدواء بطنه (سهله ومشاه).

في حين قد لا يتساوق هذا الفعل مع كلمة (محاضرة) مثل (أطلق مخاضرة). فمعناه ألقى محاضرة"[34]

---

[30]– محمود السعران، علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، ص: 311.

[31]– غنية تومي، السياق اللغوي في الدرس اللساني، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والآداب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد السادس، 2010، ص: 2.

[32]– يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص: 87 بتصرف.

[33] – "التساوق" هي ترجمة اقترحها يحيى أحمد للمصطلح الذي استعمله فيرث ومن بعده هاليدي وآخرون، وقد أورد تمام حسان هذا المصطلح وترجمه "بالتضام" وإن كان لا يتضمن المعنى الأصلي للمصطلح، فهو يستعمل "التضام" كمصطلح عام تندرج تحته ظاهرتان: التساوق والانتظام، ينظر يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص: 87.

[34] – يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص: 88.

- **المستوى النحوي**: ويضم تركيب الجملة (النحو) وتركيب الكلمة (الصرف)، وفي هذا المستوى يعتبر مفهوم الانتظام Colligation معبرا عن البناء، والانتظام هو التجاور الطبيعي للعناصر النحوية والصرفية، مثلا أداة النفي (لم) تنتظم مع الفعل الماضي فتنقلب الصيغة إلى المضارع، (...) والفعل "رغب" يجب أن ينتظم إما مع (في) أو مع (عن)، ومن الطبيعي أن هذا النمط من الانتظام يكون مسؤولا عن جزء من المعنى النحوي"[35].
- **المستوى الدلالي**: لقد تمت الإشارة إلى أن سياق الحال ضروري لفهم المعنى، لكن المعنى لا يقتصر تحليله فقط على هذا المستوى، بل إن جميع المستويات تتضافر لأدائه، فحسب "فيرث" هناك معنيان: معنى على المستوى النحوي، ومعنى على المستوى اللفظي، ففي هذا السياق يرى فيرث أن "الأشكال اللغوية لها معنى على المستوى النحوي واللفظي، وهذا المعنى تحدده أنماط الأنظمة النحوية التي تقام للغة، إن حالة الرفع في لغة ذات أربع حالات إعرابية سيكون لها بهذا المفهوم معنى مختلف عن حالة الرفع في نظام ثنائي أو نظام له أربع عشرة حالة إعرابية"[36]. ويوضح "فيرث" هذه النقطة قائلا: "إن المفرد في نظام لغوي ثنائي العدد له معنى نحوي مختلف عن المفرد في نظام ثلاثي العدد "كاللغة العربية". أو رباعي العدد كاللغة الفيجية Fijian التي تفرق رسميا بين المفرد والمثنى والجمع القليل والجمع الكثير"[37].

وداخل هذا المستوى يندرج المستوى المعجمي كما أقره الكثير من اللسانيين، لأن هذا المستوى يدرس المعنى المقالي الذي ينبني على معنيين وهما:

- ✓ **المعنى المعجمي**: القائم على علاقات عرفية اعتباطية بين المفردات ومعاينها.
- ✓ **المعنى الوظيفي**: القائم على وظائف الصوتيات والصرف والنحو.

"والتفاعل الموجود بين المعاني المعجمية والوظيفية داخل الجملة يتطلب وجود نظام دقيق ومحكم، وصلة تربطه بعالم الخبرة، وهي الدلالة. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، يرى "فيرث" أنه يستوجب الوصول إليها باجتياز المراحل الآتية:

– تحليل النص قيد الدراسة إلى مستوياته اللغوية المختلفة: المستوى الصوتي، والمستوى الصرفي، والنحوي، والمعجمي، والدلالي.

– تحديد سياق الحال أو الماجريات أثناء الكلام الفعلي"[38].

ولتوضيح ذلك نجد مثلا كلمة "ولد" يتحدد معناها بناء على مجموعة من الخصائص والوظائف اللغوية وغير اللغوية، وهي على النحوي التالي:

1-" الخاصية الصوتية: تعني أن هذه الكلمة لها تركيب صوتي من نمط معين وأنها مؤلفة من هذه الأصوات

---

[35]– المرجع نفسه، ص: 88.

[36]– يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص: 88.

[37]– المرجع نفسه، ص: 89.

[38]– غنية تومي، السياق اللغوي، في الدرس اللساني الحديث، ص: 7.

بالذات، وبيان ذلك يعني تعرف خواصها الصوتية، هذه الخواص هي جزء من معناها العام.

2-الخاصية *الصرفية*: إن دراسة الكلمة من الناحية الصرفية يمكننا من الحصول على جزء من معناها الصرفي، وهذا المعنى يطبق على النظر فيها نظرا نحويا، فحين نتعرف على خواصها النحوية؛ أي (أين تقع وما حالها الإعرابي في هذه الجملة أو تلك) نكون في إطار معناها النحوي وهو جزء من معناها العام.

3-الخاصية القاموسية: وهذه الخاصية جزء من معناها، لكن هذا المعنى تجريدي يحمل جوهر المعنى العام، لكن السياق الاجتماعي قد يؤدي إلى استعمال الكلمة استعمالا اجتماعيا معينا، فيضفي عليها ضلالا من الدلالة هي الدلالة الاجتماعية، كما في قوله: "يا ولد" ونعني "اسكت مثلا"[39] .

فمعرفة هذه الجوانب الخاصة بكلمة "ولد" يؤدي طبعا إلى معرفة معناها اللغوي عند "فيرث" ومن هنا يمكن اعتبار "أن تعرف معنى أي كلمة أو عبارة عنده يقتضي منها تحليلها تحليلا لغويا كاملا على مستويات التحليل اللغوي، صوتيا وصرفيا، ونحويا ومعجميا ودلاليا؛ أي النظر إلى استعمالها في سياقاتها المختلفة"[40].

وبناء عليه يمكن القول إن علوم اللغة تتساوى من حيث الأهمية والدور الذي تلعبه في تحليل ودراسة المفردات أو الخطاب أو النص بكامله، إذ إن لكل منها وظيفة خاصة ودور معين في البحث اللغوي، فهذه العلوم يظل مسعاها الحقيقي هو "بيان حقائق اللغة المدروسة أو على حد تعبير" فيرث" بيان المعنى اللغوي للأحداث الكلامية، والمعنى اللغوي عند "فيرث" ليس شيئا مخزونا في الذهن أو في العقل، وإنما هو عبارة عن مجموعة من الخصائص والمميزات اللغوية، وهذه الخصائص والمميزات لا يمكن النظر فيها دفعة واحدة، ولا يقوى على دراستها فرع واحد من علوم اللغة"[41]

- **خلاصة:**

إن المنهج اللساني الذي اعتمده الزمخشري في تحليله للخطاب القرآني يتقاطع نوعا ما مع منهج "فيرث" الإنجليزي في تحليل الخطاب، وهذا التقاطع يتجسد في الطرق التي اتخذها كلاهما للوصول إلى معنى الخطاب، ويمكننا أن نرصد هذا التقاطع في الخطاطة التالية:

---

[39]- كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، ص: 148.

[40]- المرجع نفسه، ص: 149.

[41]- كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، ص: 139. ينظر، ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة، كمال بشر، مكتبة الشباب، المنيرة، ص: 67.

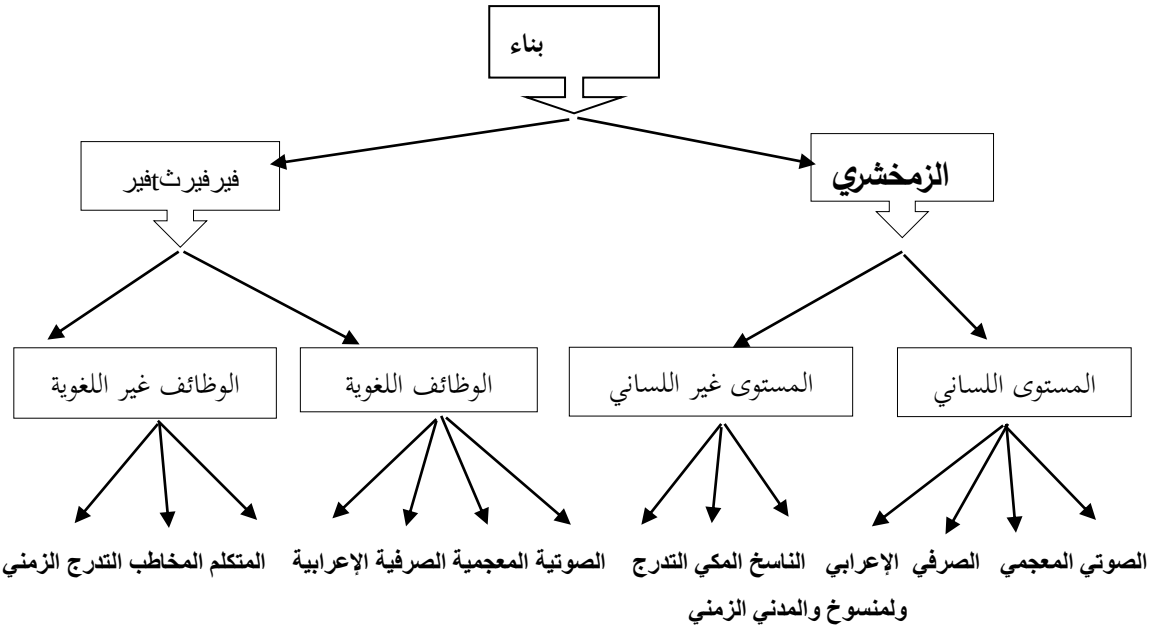

- التصورات والنتائج:

وسنقف من خلال هذه المسير وقفة لتلخيص وسرد أهم ما يحتويه هذا الموضوع من تصورات ونتائج تبرهن عن البنية الذهنية للزمخشري في كشافه:

- يعد الزمخشري قطبا من أقطاب علماء النحو واللغة، دار صيته في نفوس معاصريه ومن جاء بعدهم، فهذا العالم أفنى حياته في سبيل العلم والمعرفة.
- تنبه الزمخشري إلى نظرية السياق بشقيها "المقامي والمقالي" ودورها الفعال في استنباط معاني الخطاب، والقدرة على تأويله تأويلا كافيا ومناسبا.
- اعتمد الزمخشري في تفسيره الخطاب القرآني، على منهج تصنيفي يقوم على مستويات لسانية وعلى مستويات غير لسانية، وجعل هذه المستويات اللغوية وغيرها متعالقة ومتكاملة تكاملا سعى من خلاله بناء معنى الخطاب القرآني بناء تاما.
- إن الطرق العلمية التي اعتمدها الزمخشري لتحليل الخطاب القرآني وبيان معانيه تشبه إلى حد ما الطرق التي وظفها" فيرث" الإنجليزي في تحليله للخطاب ووصوله إلى المعنى.

لائحة المصادر والمراجع

1-القرآن الكريم.

2- أبو القاسم بن محمد الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 2009م، جزء الأول، والثاني، والثالث، والرابع، الطبعة الخامسة.

3- كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، دار غريب، القاهرة، 2005م، بدون طبعة.

4- محمد أبو موسى، البلاغية القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر، القاهرة.

5- محمود السعران، علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، بدون طبعة، بدون تاريخ.

6- جمعان بن عبد الكريم، إشكالية النص دراسة لسانية نصية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2009م.

7- ستيفن أولمن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب، المنيرة، بدون طبعة، بدون تاريخ.

8- طاهر سليمان حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية.

9- عبد الرحمن جرمان، المطيري، السياق القرآني وأثره في التفسير، دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، رسالة لنيل الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين2008 م،

10- غنية تومي، السياق اللغوي في الدرس اللساني، مجلة المحبر، الجزائر، أبحاث في اللغة والآدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد 6، 2010م.

11- يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث، 1989م.

12-Firth.J (1957): Papers in Linguistics, London Oxford University press.